حَدِيثِ الوَادِى

يأس . . .

لا بأس على المصريين من أن يجوعوا ، فقد تعودوا الجوع ، وان كانت أرضهم خصبة ، كثيرة الثمرات ، ولا بأس على المصريين من أن يظمأوا فقد تعودوا الظمأ ، وان كان نيلهم غزيرًا عذب الماء . ولا بأس على المصريين من أن يشقوا فقد تعودوا الشقاء وان كانت بلادهم خليقة أن تجعلهم أسعد الناس . لا بأس على المصريين من الجوع والظمأ والشقاء ، فهم قد تعودوا هذا كله وألفوه ، وهم قوم عقلاء ، يحسنون الصبر ويتقنون الاحتمال ، ويعرفون كيف يلتمسون العذر لساداتهم ومواليهم ، ان لم يهيئوا لهم حياة سعيدة ناعمة ، أو حياة تكفل لهم شيئا من راحة وسعة ، وقليلا من نعمة ورخاء

وليس الرجل العاقل من يضيق بالخطب إذا نزل ، ويجزع للكارثة اذا ألمت ، فان الضيق بالخطوب لايدفعها ، والجزع للكوارث لايردها ، انما الرجل العاقل من يصبر ويحتمل ، وينحنى امام الكوارث والملمات ، وله أن ينتظر الموت صامتاً حتى يدركه الموت ، وله أن يبعث من صدرة المحزون أنات أليمة ، يحملها الهواء فيملأ بها الفضاء ، أو تحملها أشعة الشمس والقمر والنجوم فتملأ بها أجواز الكون ، فمن يدرى لعل هذا الانين ان عجز عن أن يؤثر فى نفوس الناس من سكان الارض ، ان يؤثر فى قلوب غير الناس من سكان الكواكب والنجوم .

ولقد تعود المصريون أن يشقوا ، ولقد تعودوا أن يشكوا ، ولقد تعود الزمان أن يروى عنهم شكاتهم الأليمة المرة ، فيحملها امس الى اليوم ، ويحملها اليوم إلى غد ، وتتناقلها الاجيال فيما بينها ، ويتعلم منها الابناء كيف يرثون للآباء ، وكيف يشفقون على الاحفاد

هذه الصحف تتحدث الينا صباح اليوم بأن مجلس الوزراء قد اجتمع ثم اجتمع ، وطار ثم وقع ، وانتهى به الامر إلى اليأس المريح من أن يجد الحل الحاسم ، الذى طالما تمناه وزير المالية ومنى به الناس ، فستظل إذن مشكلة الدين العقارى قائمة لاتنفرج أزمتها ، ولاتنجلى غمتها ، ولايكشف ضرها عن المصريين . ومع هذا فما أكثر ماوعد وزير المالية وأسرف فى الوعد ، وما أكثر ماتحدث رئيس الوزراء فاطال الحديث ، وما أكثر ما تشدق الانصار والاولياء ، وما أكثر ما جلا أولئك وهؤلاء ، أمام الشعب آمالا عذابًا ، ظهر

الآن انها كانت كذابا - كان وزير المالية يقول ، انه سيحدث مالم يحدث أحد من قبل ، وهو لايرضى أرباع الحلول ، ولا أنصافها ، وانما يريد الحلول الكاملة الشاملة ، التى ترضى المصريين وتريحهم ، وتجدد نشاطهم ، وابتسامهم للحياة .

وكان رئيس الوزراء يتعالى ، فى شئ من التواضع الغريب عن السياسة وأحاديثها ، ويفاخر فى شئ من الكبرياء الظريفة ، بحرصه على الاقتصاد ، ورغبته فى حل مشكلاته . وكان يمزج التواضع بالكبرياء ، فيعلن انه لايستطيع أن يأتى بالمعجزات ، وانه سيبذل مايملك ، ويفعل مايستطيع لإصلاح ماليس من اصلاحه بد . وكان رئيس الوزراء يرتفع حتى يبلغ النجم ، ثم يلقى من هناك نظرة ملؤها الازدراء والاحتقار ، على تلك الحلول العوجاء العرجاء ، التى استكشفها صدقى باشا ، أو تكلفها لمشكلات الدين العقارى ، ويعلن فى اناة تليق بعظماء الرجال ، وفى هدوء يليق بالذين لايقولون الا عن ثقة ولايصدرون إلا عن يقين ، يعلن انه لايريد الحلول المضطربة التى لاتحل شيئا ، وانما يريد الحلول الحاسمة ، التى لاتدع شكا ولا لبسا ، ولاخلافا ولاخوفا .

ثم يمضى شهر ، يتبعه شهر . ويتبعهما شهر وأشهر ، والحلول الحاسمة الحازمة ، تلتمس ، يغوص لها وزير المالية فى البحر ، ويهبط لها وزير المالية فى أعماق الأرض ، ويطير لها وزير المالية فى أجواء السماء . ورئيس الوزراء ينتظر ، والمصريون ينتظرون ، والدائنون يلحون ، والمدينون يستغيثون . والايام تمضى ، والاسابيع تتعاقب ، والشهور يتبع بعضها بعضا ، والهموم تلح على المصريين ، والخطوب تأخذهم من كل مكان ، وأنينهم يتصل ، وشكواهم يردد أصداءها الزمان ، حتى إذا حان الحين ، وآن الاوان ، تمخض الجبل فولد فأراً ، وانجلت هذه الجهود الجبارة ، عن تقرير يقدمه وزير المالية الى مجلس الوزراء ، فلا يكاد المجلس ينظر فيه ، حتى يختلف فى أجزائه ، وفى تفصيلاته . ثم يكثر الحوار ، ويشتد الخلاف ، وتمطر السماء اقتراحات ، متضاربة متناقضة ، وتنبع من الارض اقتراحات أخرى ، ويحمل الهواء اقتراحات جاء بعضها من المريخ ، وبعضها من زحل ، وتختلط هذه الاقتراحات كلها . ويضطرب الامر ويشتد الجدال . وفى أثناء ذلك يسافر من يسافر من رجال المال ، ويتهيأ من بقى منهم للسفر ، ويقبل الصيف وتتهيأ الوزارة للراحة فى الاسكندرية ، ويتهيأ أعضاء البرلمان الحاضر للتفرق فى أقطار الارض يستريحون من التعب ، ويبتغون من فضل الله ، وتظهر الحقيقة منكرة بشعة ، مخيفة كريهة المنظر ، مرة

المذاق ، ثقيلة الاحتمال تظهر فى أقبح مظهر ، وأسمج منظر ، وتبعث هذا الصوت المخيف العنيف ، لا أمل فى الحل الحاسم هذا العام ، فانتظروا أيها المصريون ، فقد يفتح الله على وزرائكم به فى العام المقبل!

ثم تستقر الامور على اليأس ، وتطمئن القلوب إلى القنوط ، ويتهيأ مجلس الوزراء فى دعة ، وأمن ورضى ، ليدرس حلا من هده الحلول المؤقتة التى كان يحبها صدقى باشا . على قاعدة من هذا القوعد المضطربة ، التى كان يؤثرها صدقى باشا .

واذن فأين نحن ، وأين كنا ، الى أين انتهينا ، إلى أين ندفع . هل يستطيع رئيس الوزراء أن يحدثنا ، فيما سقطت وزارة ، وقامت وزارة؟ هل يستطيع رئيس الوزارء أن ينبئنا ، فيم هوى صدقى باشا ، وقام عبد الفتاح يحيى باشا؟ لم تحل المشكلة السياسية ، ولم تحل مشكلة الدين العام ، ولم تحل مشكلة الدين العقارى ، ولم تتغير خطة الوزارة بازاء واحدة من هذه المشكلات . ثم نشأت مشكلات أخرى عالجتها الوزارة بنفس الخطط التى كان يعالج بها صدقى باشا ما كان يعرض له من المشكلات : الانتظار ، والوعد ، ثم الاسراف فى الانتظار ، والاسر اف فى الوعد ، ثم الاعتماد على النسيان ، وفعل الزمان .!!

تبارك الله ! ألم يأن لهذا الشعب البائس التعس ، أن ينظر سادته ومواليه إلى أموره نظرة الجد والنصح؟ تبارك الله ألم يأن لهذا الشعب البائس التعس ، أن يقدم اليه سادته ومواليه عملا لا قولا ، وطحنًا لا جعجعة ؟ تبارك الله لن تحل مشكلة من مشكلات هذا الشعب ، إلا ان يكون هذا الشعب سيد نفسه ، يعالج مشكلاته ، عن علم بها ، واحتمال لتبعاتها ، لايعتمد فى ذلك على قوم معصومين ، ولايلتمس فى ذلك معونة قوم مستعمرين ، يريدون به الشر ، ويدبرون له الكيد ، ويتربصون به الدوائر .

تبارك الله . متى تنكشف الايام لهذا الشعب عن حريته ، وعزته ، واستقلاله ، فأنه لم يخلق ليكون عبداً ذليلا مستغلا ، وانما خلق ليكون حراً عزيزاً ، مستقلاً ، يريد فينفذ مايريد ، ويقول فيتم مايقول .

[طه حسين]

(★) حديث الوادى ، ٤ يونيه ١٩٣٤ .